١

سلسلة

رحلة أسرار

أبي حامد الغَزَّالي

تأليف :

حُجَّة الإسلام بركة الأنام الإمام

أبي حامد الغزَّالي

تحقيق وتقديم :

محمد مصطفى الساكت



دار زحمة كتاب للثقافة والنشر



اسم الكتاب: رحلة أسرار حجة الإسلام أبي حامد الغزَّالي – ج ١

اسم المؤلف: أبي حامد الغزَّالي

تحقيق وتقديم: محمد مصطفى الساكت

رقم الإيداع: ٢٠٢١ /٢٣٤١٧

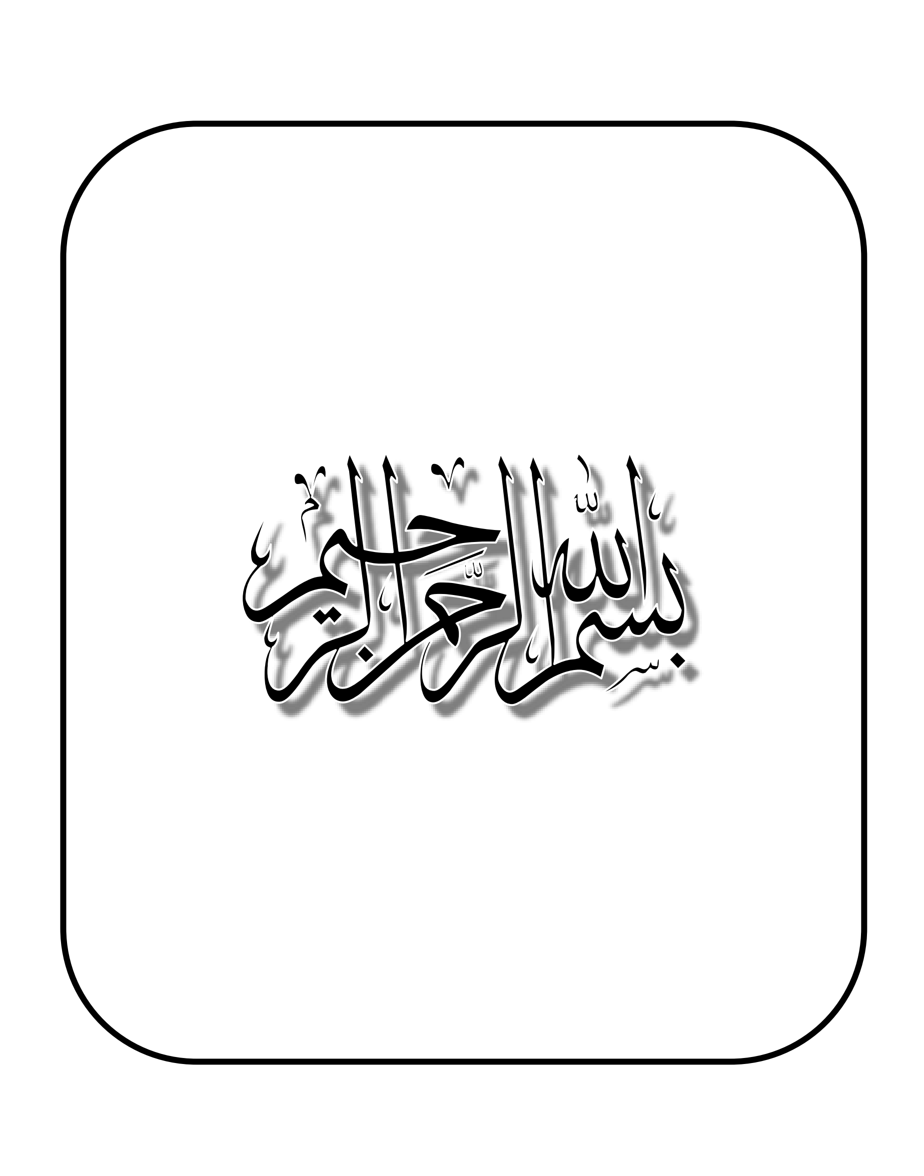
الترقيم الدولي: ١-٢٦٩-٨٣٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان: ١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

الفيسبوك: دار زحمة كتاب للنشر

التليفون: ٠٠٢٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦ / ٠٠٢٠١١٠٠٦٦٢٥٩٥

البريد الإلكتروني: za7ma.kotab@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله محمد نور العينين، وصخرة الكونين، صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليمًا كثيرًا في كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك يا الله.

لا شك أنَّ حُجَّةَ الإسلامِ الغزَّالي ﷺ علامةٌ فارقةٌ في تاريخ الأُمَّةِ الإسلامية، فقد وهبه الله عقلًا جبَّارًا، جَبَرَ الله به الأمة الإسلامية في وقت كادتْ الفِرَقُ الإسلاميةُ أن تفتك بها وبالمسلمين، وبالتحديد فِرْقَة الباطنية - ويُطلق عليها فِرقَة الحشاشين - وكان زعيمها الحسن بن الصَّبَّاح، وهو أول مَن أنشأ نظام الاغتيالات، وهو في عصرنا يُسَمَّى بـ (النظام الخاص) للجماعات الإرهابية. كان الغزَّاليُّ آية في الذكاء بشهادة أعدائه من الفِرَقِ الإسلامية، ووهب الله له قوة وعناية شديدين في ترتيب الحُجَج العقلية والبراهين المنطقية والفلسفية في مواجهة أصحاب الفِرَقِ الإسلامية وأتباعها، كالباطنية، والمعتزلة، وغلاة الفلاسفة، وغلاة المُتَكَلِّمين، والمُجَسِّمَة، وغلاة الحنابلة الذين يتمسَّحون في المذهب الحنبلي في كل عصر، وغلاة المتصوفة الذين انحرفوا عن الطريق الصوفي الحنيف.

وقد أجمعَ الموافق له والمخالف على إمامته وتفوقه وتقدمه، فهو مجدد القرن الخامس الهجري، فكان في المائة الأولى: عمر بن عبد العزيز، وفي المائة الثانية: محمد بن إدريس الشافعي - إمام المذهب -، وفي المائة الثالثة: أبي الحسن الأشعري - إمام أهل السُّنة والجماعة، وإمام المذهب الأشعري في العقيدة - وأبي منصور

المَاتُرِيدي – الإمام الثاني لمذهب أهل السُّنة والجماعة في العقيدة، وفي المائة الرابعة: أبي إسحاق الإسفراييني، وفي المائة الخامسة: حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزَّالي. وقد يجتمع أكثر من إمام مجدد في قرن واحد.

فقد أسسَ الغزَّاليُّ مدرسةً فكريةً لا يزال أثرها وعلومها ممتد إلى هذه اللحظة في زمننا هذا. تلك المدرسة أطلق عليها العلماء والأولياء (المدرسة الغزَّالية) أو (مدرسة الطريقة الغزَّالية) نسبةً إليه، وفيها نشأة سلطان الأولياء والعارفين محيي الدين الإمام عبد القادر الجيلاني الحَسَني، الحنبلي الشافعي، وتربى على فِكر تلك المدرسة، وأسس مدرسته الصوفية الشهيرة بـ (المدرسة القادرية) أو (مدرسة الطريقة القادرية) نسبةً إليه، حيث التقى الإمام الجيلاني بأستاذه الغزَّالي، وألَّفَ كتابه الشهير (الغُنْيَةُ لطالبي طريق الحق والدين) على نمط كتاب (إحياء علوم الدين). كما أن الإمام الجيلاني استفاد من تجارب المدارس الإصلاحية التي سبقته كمدرسة أستاذه أبي حامد الغزَّالي التي كانت ضمن المدرسة الفكرية النظامية، حيث كان الداعم لمدرسة الغزَّالي، الوزير السلجوقي نظام الملك، وهنا استفاد الجيلاني من فكرة المدرسة النظامية وبنفس المنهج التزكوي، الجيلاني رفع شعاره «**لكلٍ مذهبه ... في إطار الكتاب والسُّنة**». وفي تلك المدرسة، نشأة جيل بأكمله، وهو جيل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتربَّى على علومها وفكرها، فقد كان صلاح الدين الأيوبي شافعيَّ المذهب، أشعريَّ الاعتقاد، قادريَّ المشرب الصوفي. ذلك الجيل، وذلك السلطان الذي أعاد المسجد الأقصى إلى أحضان المسلمين بعد أن استولى عليها الصليبيين، وكان شعارهم وقتئذ: «**لكلٍّ مذهبه الفقهي والفكري وهدفنا واحد هو تحرير القدس من نير الاحتلال الصليبي**».

لستُ هنا في تقديم تفاصيل كاملة عن حياة ذلك الإمام العظيم، ولكني أذكرُ فقط طيفًا من فكره وسيرته وعقليته على عَجَلٍ.

اسمه: مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد الغزَّالي (الطوسي) نسبةً إلى بلده طوس، (النيسابوري) نسبة إلى نيسابور، وهي مدينة في خرسان بشمالي شرق إيران.

مولده: وُلِدَ سنة ٤٥٠ هجريًّا، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بقرية طوس، وكان يميل إلى الصوفية، ولا يأكل إلا من كسب يده، وكان يجالس الفقهاء ويقوم بخدمتهم. كان له أخ أكبر منه سنًّا اسمه (أحمد بن محمد الغزَّالي)، وكان من أهل الزهد والتصوف، وكان له دراية عميقة بعلم القلوب وإصلاحها. ولما حضرت الوفاة لوالديهما، وصى بهما إلى صديقٍ له من أهل التصوف، ثم مات. نشأ مُحَمَّدٌ الغزَاليُّ معتمدًا على نفسه، مندفعًا إلى طلب العلم والتبحر فيه بدافع الغريزة الفطرية الكامنة بداخله، فتلقى علوم اللغة والفقه في بلده طوس، وانتقل إلى جرجان فقرأ مبادئ الأصول على يد أحد أعلامها، ثم عاد إلى طوس.

مشايخه: أخذ الفقه الشافعي على شيخه أحمد الراذكاني في طوس، ثم رحل إلى جرجان وطلب العلم على يد شيخه أبي النصر الإسماعيلي، ثم رحل إلى نيسابور، ولازمَ إمام الحرمين أبي معالي الجويني (إمام السادة الشافعية في عصره ورئيس المدرسة النظامية)، ودرس على يديه مختلف العلوم كالمذهب الشافعي، وفقه الخلاف، وعلم أصول الفقه الشافعي، وعلم الكلام، وعلم المنطق، وعلم الفلسفة. وكان شيخه الجويني يصف تلميذه الغزَّالي بأنه (بحر مُغْدِق).

مذهبه وعقيدته: كان حُجَّةُ الإسلامِ شافعيَّ المذهب الفقهي، سُنِّيًّا، أشعريَّ المعتقد، قطبًا صوفيًّا. قال عنه الإمام محمد بن يحيى: (الغزَّاليُّ هو الشافعيُّ الثاني).

جدد مذهب السادة الشافعية في الفقه، وجدد علم الكلام على مذهب السادة الأشاعرة أهل السُّنة والجماعة في العقيدة حتى صار أحد مؤسسي المدرسة الأشعرية في علم الكلام بعد الإمام أبي الحسن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي المعالي الجويني، وجدد علم التصوف السُّني الحنيف على طريق الجُنيد البغدادي.

المراحل الفكرية التي مرَّ بها: قبل أن يستقر حُجَّةُ الإسلامِ على التصوف في آخر حياته، مرَّ بمراحل فكرية كثيرة في حياته كتبها وشرحها بالتفصيل في رسالته (المنقذ من الضلال)، ويمكنني إجمالها في عدة نقاط:

١- مرحلة الشك بشكل لا إرادي.
٢- مرحلة السفسطة غير المنطقية حتى شُفِيَ منها بعد شهرين تقريبًا.
٣- مرحلة حَصْر الحق في إحدى الطوائف الأربعة الآتية: (المُتَكَلِّمون) وهم أهل النظر والرأي، و(الباطنية) وهم أصحاب التعليم والإمام المعصوم، و(الفلاسفة) وهم أهل المنطق والبرهان، و(الصوفية) وهم أهل الحضرة والمشاهدة والمُكَاشَفة.
٤- مرحلة علم الكلام: وهي المرحلة التي صار فيها إمامًا قوي الحُجَّة على خصومه من أصحاب الفِرَقِ الإسلامية، فقضى على شوكتهم وعلى ادعاءاتهم وانحرافاتهم الفكرية. وهذه هي مهمة علم الكلام في الإسلام؛ أي أنه وسيلة وليس غاية.
٥- مرحلة الفلسفة: وهي المرحلة التي نَقَّى فيها الفلسفة والمنطق من العقائد اليونانية الوثنية، وجعلها علوم إسلامية؛ أي أخضعهما للشرع الشريف.

٦- مرحلة التصوف والصوفية: وهي المرحلة التي وجدَ فيها غايته، وهدفه، وصلاح حاله وقلبه، بعد أن أقفل الله على لسانه، وفقدَ القدرة على النطق، ولم ينطلق لسانه بكلمة واحدة فترة من الزمن، وصار لسانه حبيس فَمِه، لدرجة أنه لم يستطع أن يستسيغ الطعام والشراب، ولما رآه الأطباء، قالوا: (هذا أمرٌ نزلَ بالقلبِ، وسرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروَّحَ السِّرُّ عن الهَمِّ المُلِمِّ). كأن الله أراد أن ينظر الغزَّالي إلى أحوال قلبه بعد أن جعله نورًا يهتدي به الناس في ظلمات الفِرَقِ الإسلامية، فأصابه الخرس حتى يأهله الله لمرحلة أخرى يكون يُبْطِلُ مزاعم أهل الأهواء، كغلاة المتصوفة، ويؤسس للقاعدة الأولى في حياة الإنسان استعدادًا لملاقاة الصليبيين الذين اجتاحوا بلاد المسلمين آنذاك؛ ألا إنها مرحلة التصوف. ثم أعاد الله النطق إليه، وصار ينطق بلسان صوفي جديد يهدف إلى وَحدة المسلمين على كلمة واحدة، وعلى فكر سُنِّي واحد مع احترام الخلاف في الفروع الفقهية، بعد أن كان ينطق بلسان عقلي وفلسفي.

تصوفه وزهده: عاد الغزَّاليُّ إلى خرسان، ودرَّسَ بالمدرسة النظامية مدة يسيرة، ثم رجع إلى طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية؛ ووزع أوقاته بين قراءة القرءان، ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، ودوام الصيام والصدقات، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.

وفاته: تُوفِّي في طوس يوم الإثنين الموافق الرابع من جمادي الآخر في سنة ٥٠٥ هجريًّا. ورُوِيَ عن أخيه (أحمد الغزَّالي): (لما كان يوم الإثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال: «عليَّ بالكفن»، فأخذه وقبَّله، ووضعه على عينيه

وقال: «سمعًا وطاعةً للدخول على الملك»، ثم مدَّ رجليه، واستقبل القِبلة، ومات قبل الإسفار). وقد سأله قبيل الموت بعض أصحابه: فقالوا له: أوصِ. فقال: «عليك بالإخلاص» فلم يزل يكررها حتى مات.

❁❁❁

ويحضرني هنا أمر حدث لي مع شيخي القادري[1]، وهو أمر له دلالة ومعنى سيفهمه القارئ العزيز من خلال هذه السلسلة، وعلى إثر هذا الأمر؛ أجازني شيخي بإجازة طويلة في جميع مصنفات حُجَّة الإسلام الغزَّالي ومؤلفاته، بسنده المُسلسَل المتصل إلى الإمام الغزَّالي، كما أجازني بالطريقة الصوفية المنسوبة للإمام الغزَّالي، وذلك بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٤م. ففي أول لقاء في بيت شيخي طلبتُ منه أن أدرسَ على يديه علم الكلام والجدل والفلسفات، وغيرها من العلوم العقلية والمنطقية اقتداءً بالإمام الغزَّالي، لكنه رفض مُرشِدًا إياي أن أبدأ من حيث انتهى الإمام الغزَّالي؛ أي أبدأ بعلم القلوب والتصوف وتربية النفس وتزكيتها، قائلًا:

«يا ولدي، إذا كنتَ شغوفًا بعقلية حُجَّة الإسلام الغزَّالي ﷺ ومُحِبًا لفِكره، وأراكَ مهتم بكتبه، فأنصحكَ بنصيحة: ابدأ مِن حيث انتهى، ثم اهتم مِن حيث بدأ؛ حيث انتهى الإمام أبو حامد الغزَّالي إلى التصوف وسلوك الطريق الصوفي، وتصفية القلب والعقل مِن كلِ شيءٍ ما عدا الله ورسوله، وهو بدأ حياته بدراسة علوم الكلام، وأصول الفقه، والمنطق، والفلسفة، والمعقولات بعناية شديدة وتركيز عميق.

---

(١) فضيلة العلَّامة الشيخ الشريف مخلف بن يحيى العلي الحذيفي الحُسيني – خليفة الطريقة القادرية العليّة بجمهورية مصر العربية، شافعي المذهب، سُّني أشعري المعتقد، قادري المشرب الصوفي. من علماء سوريا، جاء إلى مصر، واستقر بالإسكندرية منذ أكثر من أحد عشر سنة.

يا ولدي، ابدأ مِن مدرسة التصوف الغزَّالية القادرية، والفقه، والحديث، ثم اهتم بدراسة علوم الكلام والمعقولات والمنطق وغيرها بعد أن يكون قلبك ونفسك نقيًّا خاليًّا من الأمراض والآفات، فيكون ذلك أنفع لك، وأزكى وأطهر».

ومن هذه النصيحة التي يحتاجها أغلب طلبة العلم وغيرهم من العوام والبسطاء في زمننا هذا، ومن هذا المنطلق، قمتُ باختيار بعض رسائل الإمام الغزَّالي وترتيبها، وليس جميعها؛ لأن بعض الرسائل تحتاج إلى قارئ متخصص أو قارئ على درجة رفيعة من الثقافة الدينية، وذلك رغبةً من دار زحمة كُتَّاب للثقافة والنشر بإحياء تراث هذا الإمام الجليل، حتى يستفيد الفئة العريضة من الناس، وتحديدًا الفئة العريضة من القرَّاء. وهذه السلسلة موجهة بالأصل إلى أكبر عدد ممكن من الفئة الشبابية، وقد أسْميتُها سلسلة (رحلة أسرار أبي حامد الغزَّالي).

ومما قمتُ به في عمل تحقيق السلسلة كلها:

١- تخريج الآيات القرءانية.

٢- تخريج الأحاديث النبوية.

٣- شرح الكلمات المُبهَمة التي قد يخفى معناها على القارئ.

٤- ضبط بعض الكلمات بالتشكيل حتى لا يُفْهَم غير مرادها.

٥- التعليق على بعض الجمل التي قد تشكل على القارئ.

وقد اعتمدتُ في تخريج الأحاديث النبوية على برنامج إلكتروني زكَّاه فضيلة مولانا الإمام أ.د. علي جمعة - مفتي الديار المصرية السابق - في برنامجه (والله أعلم)، والموقع اسمه (إحسان Ihsan)، برعاية (جمعية المَكْنَز الإسلامي)، وطريقة

البحث فيه سهلة، وهو موقع يحتوي على كتب الأحاديث الستة، وكثير من المسانيد، وهي كافية تمامًا لأي مسلم. كما أنه يمكن لأي شخص أن يقوم بتنزيل هذا البرنامج على جهاز الحاسوب الشخصي.

وحاولتُ جاهِدًا أن أجمع بين كل رسالتين في كتابٍ منفصلٍ، بحيث تكون الرسالتان لهما نفس الهدف، وتُكمل إحداهما الأخرى.

أما فيما يتعلق بتحقيق رسالتي (أيها الولد) و(كيمياء السعادة)، فاعتمدتُ على طبعة (الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزَّالي)، التي طُبِعَتْ على نفقة الرحَّالة محيي الدين صبري الكردي، وقد حققها قبل عشرة أعوام؛ أي في سنة ١٩٢٤ ميلاديًّا بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، وذلك سنة ١٣٥٣ هجريًّا - ١٩٣٤ ميلاديًّا.

ولا أنسى أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى صديقي العزيز وأخي الكبير الدكتور محمد رجب الأزهري - المدرس المساعد بقسم أصول الفقه بجامعة الأزهر - الذي ساعدني بتوجيهه ونصائحه أثناء تحقيقي لهذه الرسائل الغزَّالية.

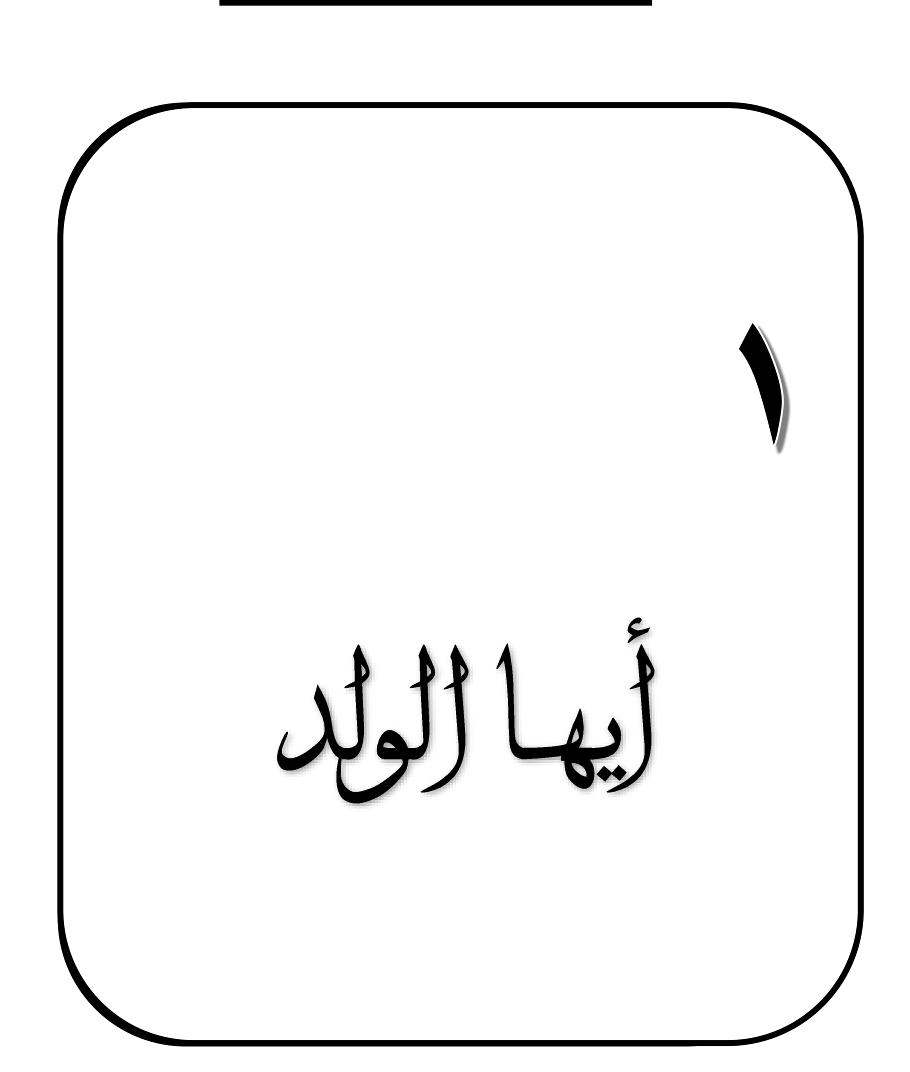
محمد مصطفى الساكت

الإسكندرية في ٦ سبتمبر ٢٠٢١م

Email: muhammadalsaket89@gmail.com



■■ الرحلة ١ ■■



بسم الله الرحمن الرحيم

(خطبة الرسالة)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

اعلمْ أنَّ واحدًا من الطلبة المتقدّمين لازمَ خدمة الشيخ الإمام زين الدين حُجَّة الإسلام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزَّاليّ، قدّس الله روحه، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم، واستكمل من فضائل النفس، ثم إنه فكر يومًا في حال نفسه وخطر على باله، فقال: إني قرأتُ أنواعًا من العلوم، وصرفتُ ريعان عمري على تعلمها وجمعها. فالآن ينبغي أن أعلمَ أيُّ نوعها ينفعني غدًا ويؤانسني في قبري وأيها لا ينفعني حتى أتركه، فقد قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ»(١)، فاستمرّت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجّة الإسلام محمد الغزَّالي رحمة الله عليه استفتاء، وسأل عنه مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء، قال: وإن كان مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلي، لكن مقصودي أن يكتبَ الشيخُ حاجتي في ورقاتٍ تكون معي مدة حياتي، وأعملُ بما فيها مدى عمري - إن شاء الله تعالى - فكتبَ الشيخُ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم.



(١) صحيح مسلم - كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل - حديث رقم ٧٠٨١، والحديث من طريق زيد بن أرقم.

(نص الرسالة)

اعلم أيها الولد المحب العزيز، أطال الله بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه - أنَّ منشورَ النصيحةِ يُكتبُ من معدن الرسالة عليه السلام إن كان قد بلغك منه نصيحة فأيُّ حاجةٍ لك في نصيحتي، وإن لم يبلغك منه فقل لي ماذا حَصَّلْتَ في هذه السنين الماضية.

أيها الولد، من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته قوله: «علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه وإنَّ امرأ ذهبتْ ساعةٌ من عمره في غير ما خُلِقَ له لجدير أن تطولَ عليه حسرته ومن جاوز الأربعين، ولم يغلب خَيْرُه شَرَّه فليتجهَّز إلى النَّارِ»(١)، وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد، النصيحةُ سهلةٌ والمُشْكِلُ قَبُولها لأنها في مذاقِ مُتبعي الهوى مُرَّةٌ، إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي(٢) مشتغلًا في فضل النفس، ومناقب الدنيا، فإنه يَحْسَبَ أنَّ العلمَ المجرَّدَ له سيكون نجاته

(١) ليس بحديث، إنما هو قول ذُكِرَ لأكثر من شخص حيث ذكره ابن رجب الحنبلي في (جامع العلوم والحكم) ، ج ١ ص ١١٦، وقال عن الحسن قال: (من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه).

(٢) العلم الرسمي كالفلسفات والجدليات وعلم الكلام، أو العلم الذي قد لا ينتفع به طالب العلم في آخرته؛ فعلم الكلام لا يُوصِّل العبد إلى الله، (وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السُّنة على أهل السُّنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة) كما قال الإمام الغزَّالي في رسالة (المنقذ من الضلال).

وخلاصه فيه، وأنه مُسْتَغْنٍ عن العمل - وهذا اعتقاد الفلاسفة - سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد، كما قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لاَ يَنْفَعُهُ اللهُ بِعِلْمِهِ»[١]. ورُوِيَ أَنَّ الجُنيدَ قَدّسَ اللهُ سِرَّه رُئِيَ في المنام بعد موته، فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفَنِيَتْ تلك الإشارات، وما نفعنا إلا رُكَيْعَات ركعناها في جوف الليل.

أيها الولد، لا تكن من الأعمال مُفلسًا، ولا من الأحوال خاليًّا، وتيَقَّنْ أنَّ العلمَ المجردَ لا يأخذ اليد، مثاله: لو كان على رجلٍ في برية[٢] عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعًا وأهل حرب، فحُمِلَ عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنك هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ فمن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية، وتعلَّمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل، ومثله أيضًا لو كان لرجلٍ حرارة ومرض صفراوي يكون

(١) لفظ الحديث في المعجم الصغير: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ). المعجم الصغير - باب الطاء - مَن اسمه طاهر - حديث رقم ٥٢٥، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، لَمْ يَرْوِهِ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ إِلَّا عُثْمَانُ الْبُرِّيُّ.

(٢) صحراء جرداء.

علاجه بالسكنجبين[١] والكشكاب[٢] فلا يحصل البرء[٣] إلا باستعمالها (شعر)[٤]:

گر مي دوهزار رطل همي پيمائي   تامي نخوري نباشدت شيدائي

ولو قرأتَ العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدًا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾[٥]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾[٦]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾[٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾[٨]، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾[٩].

---

(١) كلمة فارسية معناها: شراب مصنوع من العسل والخل لغرض التداوي.

(٢) كلمة فارسية معناها: شراب ماء الشعير لغرض التداوي.

(٣) الشفاء.

(٤) بيت شعر باللغة الفارسية معناه: لو كَثُرَ عندك الخمر لا تُسْكِرَكَ ما لم تشْربْها، فكذلك وإن كَثُرَ عِلمُك لا ينفعك ما لم تعمل به.

أبو سعيد الخادمي، محمد بن محمد بن مصطفى، **شرح رسالة أيها الولد المحب**، صفحة ٧٨، دار جوامع الكلم، القاهرة.

(٥) سورة النجم: ٣٩

(٦) سورة الكهف: ١١٠

(٧) سورة التوبة: ٨٢

(٨) سورة الكهف: ١٠٧، ١٠٨

(٩) سورة الفرقان: ٧٠

وما تقول في هذا الحديث: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلًا»[١].

والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، ودليل الأعمال أكثر من أن يُحصى، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين، ولو قيل أيضًا يبلغ بمجرد الإيمان، قلنا: نعم، لكن متى يبلغ؟ وكم مِن عقبة كؤود[٢] يقطعها إلى أن يصل؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان، وأنه هل يسلم من سلب الإيمان أم لا؟ وإذا وصل، هل يكون خائبًا مفلسًا؟ وقال الحسن البصري: «يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم».

أيها الولد؛ ما لم تعمل لم تجد الأجر. حُكِيَ أنَّ رجلًا من بني إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة، فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة، فأرسل الله إليه ملكًا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه، قال العابد: نحن خُلِقْنَا للعبادة فينبغي لنا أن نعبده، فلما رجع الملك، قال: إلهي؛ أنت أعلم بما قال، فقال الله تعالى: إذا هو لم يُعرِضْ عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له، قال رسول الله ﷺ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا

(١) لفظ الحديث في صحيح البخاري: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ). صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب دعاؤكم إيمانكم – حديث رقم ٨، والحديث من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) شاقة المُرتقى.

وَزِنُوا أَعْمَالَكُم قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا»(١). وقال علي ﷺ: «من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو مُتَمَنٍّ، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مُسْتَغْنٍ». وقال الحسن رحمه الله تعالى: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب»، وقال: «علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل». وقال رسول الله ﷺ: «الْكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي»(٢).

أيها الولد، كم من ليالٍ أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك، ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي ﷺ،وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك، ثم طوبى لك. ولقد صدق من قال شعراً:

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهنَّ لغير فقدك باطل

---

(١) ليس بحديث، بل هو قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ. وردتْ في إحياء علوم الدين بهذه الصيغة: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا).

أبو حامد الغزَّالي، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار"**، كتاب المراقبة والمحاسبة، المرابطة الثالثة: محاسبة النفس، ج ٥، ص ٥٢، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

(٢) لفظ الحديث في سنن الترمذي: (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ). سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب ٢٥ – حديث رقم ٢٦٤٧، والحديث من طريق شداد بن أوس بن زيد الأنصاري.

أيها الولد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مَجْزِيٌّ به.

أيها الولد، أي شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام، والخلاف، والطب، والدواوين، والأشعار، والنجوم، والعروض، والنحو، والتصريف، غير تضييع العمر بخلاف ذي الجلال، إني رأيتُ في إنجيل عيسى - عليه الصلاة والسلام - قال: «من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالًا، أوله يقول: عبدي طَهَّرتُ منظر الخلق سنين وما طَهَّرتُ منظري ساعة، وكل يوم ينظر في قلبك يقول: ما تصنع لغيري وأنت محفوف بخيري، أما أنت أصم لا تسمع.».

أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تدارك الأيام الماضية تقول غدًا يوم القيامة: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾(١)، فيقال: يا أحمق أنت مِن هناك تجيء.

أيها الولد، اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل إليهم، إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «هذه الأجساد قفص الطيور، وإصطبل الدواب، فتفكر في نفسك مِن أيهما أنت، إن كنت من الطيور العلوية،

(١) سورة السجدة: ١٢

فحين تسمع طنين طبل ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾(١) تطير صاعدًا إلى أن تقعد في أعالي بروج الجنان، كما قال رسول الله ﷺ: « اهْتَزَّ الْعَرْشُ مِنْ مَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»(٢). والعياذ بالله، إن كنت من الدواب، كما قال الله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾(٣)، فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار، ورُوِيَ أَنَّ الحسن البصري - رحمه الله تعالى - أُعْطِيَ شربة ماء بارد، فأخذ القدح وغُشِيَ عليه، وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: ما لك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرتُ أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾(٤).

أيها الولد، لو كانَ العلمُ المجردُ كافيًّا لك، ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء: هل من سائلٍ، هل من مستغفرٍ، هل من تائب ضائعًّا، بلا فائدة. ورُوِيَ أَنَّ جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله ﷺ، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ»(٥)، وقال - عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة الفجر: ٢٨

(٢) لفظ الحديث في صحيح البخاري: (اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ). صحيح البخاري – كتاب مناقب الأنصار – باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه - حديث رقم ٣٨٥٠، والحديث من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) سورة الأنعام: ١٧٩

(٤) سورة الأعراف: ٥٠

(٥) لفظ الحديث في صحيح البخاري: (نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ) ، قَالَ سَالِمٌ: (فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلًا). صحيح البخاري – كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما – حديث رقم ٣٧٨٥، والحديث من طريق حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها.

- لرجل من أصحابه: «يا فلان لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيرًا يوم القيامة»[(١)].

أيها الولد، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾[(٢)]: أمر، ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾[(٣)] شكر، ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾[(٤)] ذكر. قال عليه السلام: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرءان، وصوت المستغفرين بالأسحار»[(٥)]. قال سفيان الثوري - رحمة الله تعالى عليه -: «إن الله تبارك وتعالى خلق ريحًا بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار»، وقال أيضًا: «إذا كان أول الليل ينادي منادٍ من تحت العرش: ألا ليقم العابدون فيقومون ويصلون ما شاء الله، ثم ينادي منادٍ في شطر الليل: ألا ليقم القانتون، فيقومون ويصلون إلى السحر، فإذا كان السحر نادى منادٍ: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون، فإذا طلع الفجر نادى منادٍ: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم».

---

(١) هذا الحديث ليس من قول النبي لأصحابه؛ بل حديث للنبي لأم سليمان عليه السلام نصيحة له. ولفظ الحديث في المعجم الصغير: (يَا سُلَيْمَانُ لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الْعَبْدَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ). المعجم الصغير – باب الجيم – مَن اسمه جعفر – حديث رقم ٣٥٣، والحديث من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) سورة الإسراء: ٧٩

(٣) سورة الذاريات: ١٨

(٤) سورة آل عمران: ١٧

(٥) رواه الديلمي في كتاب (فردوس الأخبار بمأثور الخطاب) ، ج ٢، ص ٢٥٣٨ من حديث أم سعد.

أيها الولد، رُوِيَ في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: «يا بني، لا يكونن الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم، ولقد أحسن من قال شعراً:

لقد هتفت في جنح ليل حمامة ... على فنن وهنا وإني لنائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقًا ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم

وأزعم أني هائم ذو صبابة ... لربي فلا أبكي وتبكي البهائم

أيها الولد، خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي. اعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل وتترك، ويكون باقتداء الشرع، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصياً، أو صليت في ثوبٍ مغصوبٍ، وإن كانت صورة عبادة تأثم.

أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقًا للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك أن لا تغتر بالشطح[١] وطامات[٢] الصوفية، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة، وقطع شهوة النفس، وقتل هواها بسيف

(١) الشطح: (لفظة مأخوذة من الحركة؛ لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قَوِيَ وَجْدُهُم، فعبَّروا عن وَجْدِهِم ذلك بعبارة يستغرب سامعها ... ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه؟! يقال: شَطَحَ الماءُ في النهرِ، فكذلك المُريدُ الوَاجِدُ: إذا قَوِيَ وَجْدُه، ولم يطقْ حَمْلَ ما يَرِدْ على قلبه من سطوة أنوار حقائقه، سَطَعَ ذلك على لسانه، فيُتَرْجِمَ عنها بعبارة مستغربةٍ مُشْكَلَةٍ على مفهوم سامعيها، إلا مَن كان مِن أهلها ...).

الحكيم، سعاد، **المعجم الصوفي**، ط ١، ص، ٦٥٠، دندرة للطباعة والنشر.

(٢) جمع طَّامة؛ أي الغلو، وهو من صفات الأدعياء، والغلو ليس في التصوف السُّني.

الرياضة، لا بالطامات، والتُّرَّهات(١). واعلم أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة، حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيا قلبك بأنوار المعرفة.

واعلم بأن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول، إن لم تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي، وإلا فعلمها من المستحيلات؛ لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيًّا لا يستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو، ومرارة المُرّ لا يعرف إلا بالذوق. كما حُكِيَ أن عِنِّينًا(٢) كتب إلى صاحب له أن عرفني لذة المجامعة كيف تكون، فكتب له في جوابه: يا فلان، إني كنتُ حسبتك عِنِّينًا فقط، الآن عرفتُ أنكَ عِنّينٌ وأحمقُ؛ لأن هذه اللذة ذوقية، إن تصل إليها تعرف، وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة.

أيها الولد، بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في إحياء العلوم(٣) وغيره. ونذكر ها هنا نبذةً منه، ونشير إليه فنقول: قد وجب على السالك(٤) أربعة أمور:

---

(١) جمع تُرَّهَة: الأباطيل والسخافات.

(٢) العِنِّين هو مَن يعجز عن جِماع النساء، أو لا يرغب فيهن، ولا يشتهيهن.

(٣) إحياء العلوم: أي كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزَّالي.

(٤) السالك: أي الذي يسلك الطريق الصوفي.

الأمر الأول: اعتقاد صحيح[١] لا يكون فيه بدعة، والثاني: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة، والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق، والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى، ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة.

حُكِيَ أن الشبليَّ - رحمه الله - خدم أربعمائة أستاذ، وقال: «قرأتُ أربعةَ آلاف حديث، ثم اخترتُ منها حديثًا واحدًا، وعملتُ به، وخلَّيتُ ما سواه؛ لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه. وكان علم الأولين والآخرين كله مندرجًا فيه، فاكتفيتُ به، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها»[٢].

أيها الولد، إذا علمت هذا الحديث لا حاجة إلى العلم الكثير، وتأمل في حكاية أخرى، وذلك أن حاتمًا الأصمّ كان من أصحاب الشقيق البلخي - رحمة الله تعالى عليهما - فسأله يومًا، قال: «صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حَصَّلْتَ فيها؟ قال: حَصَّلْتُ ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها. فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم الأصمّ:

---

(١) اعتقاد المذهب الأشعري والمذهب المَاتُريدي، وهما الناطقان بعقيدة أهل السُّنة والجماعة.

(٢) إنه قول لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وليس حديث عن رسول الله ﷺ.

(الفائدة الأولى):

إني نظرتُ إلى الخلقِ، فرأيتُ لكل منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدًا وحيدًا، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكرتُ وقلتُ: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه في قبره ويؤانسه فيه، فما وجدتُ غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبًا لي لتكون سراجًا لي في قبري، وتؤانسني فيه، ولا تتركني فريدًا.

(الفائدة الثانية):

إني رأيتُ الخلقَ يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملتُ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾(١)، وتيقنتُ أن القرءانَ حقٌ صادقٌ، فبادرتُ إلى خلافِ نفسي، وتشمَّرتُ بمجاهدتِها وما متعتها بهواها حتى رضيتُ بطاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى وانقادتْ.

(الفائدة الثالثة):

إني رأيتُ كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا، ثم يمسكها قابضًا يده عليه، فتأملتُ في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(٢)،

---

(١) سورة النازعات: ٤٠، ٤١

(٢) سورة النحل: ٩٦

فبذلتُ محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى، ففرَّقته بين المساكين ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى.

(الفائدة الرابعة):

إني رأيتُ بعضَ الخلقِ ظنَّ شرفه وعزه في كثرة الأقوام والعشائر، فاغترَّ بهم، وزعمَ آخرُ أنه في ثروة الأموال، وكثرة الأولاد، فافتخروا بها، وحسبَ بعضُهم الشرف والعز في غصب أموال الناس، وظلمهم، وسفك دمائهم، واعتقدتْ طائفةٌ أنه في إتلاف المال، وإسرافه وتبذيره، وتأملتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(١)، فاخترتُ التقوى، واعتقدتُ أن القرءان حقٌّ صادقٌ، وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

(الفائدة الخامسة):

إني رأيتُ الناسَ يذمُّ بعضُهم بعضًا، ويغتابُ بعضُهم بعضًا، فوجدتُ ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾(٢)، فعلمتُ أنَّ القسمةَ كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدتُ أحدًا، ورضيتُ بقسمةِ اللهِ تعالى.

---

(١) سورة الحجرات: ١٣

(٢) سورة الزخرف: ٣٢

(الفائدة السادسة):

إني رأيتُ الناسَ يعادي بعضُهم بعضًا لغرضٍ وسببٍ، فتأملتُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[١]، فعلمتُ أنه لا يجوز عداوة آخر غير الشيطان.

(والفائدة السابعة):

إني رأيتُ كل أحد يسعى بجدٍ، ويجتهد بمبالغة؛ لطلبِ القوت والمعاش بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويذل نفسه، وينقص قدره، فتأملتُ في قوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٢]، فعلمتُ أن رزقي على الله تعالى، وقد ضمنه، فاشتغلتُ بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه.

(الفائدة الثامنة):

إني رأيتُ كل واحد معتمدًا على شيء مخلوق، بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم إلى مخلوق مثله، فتأملتُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[٣]، فتوكلتُ على الله تعالى فهو حسبي ونعم الوكيل. فقال شقيق: وفقك الله تعالى، إني

---

(١) سورة فاطر: ٦

(٢) سورة هود: ٦

(٣) سورة الطلاق: ٣

قد نظرتُ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ والفرقانَ، فوجدتُ الكتبَ الأربعةَ تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عَمِلَ بها، كان عاملًا بهذه الكتب الأربعة».

أيها الولد، قد علمتُ من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم، والآن أُبيِّنُ ما يجب على سالك سبيل الحق.

فاعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربي ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خُلُقًا حسنًا. ومعنى التربية يشبه فِعْل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه، ولا بُدَّ للسالك من شيخ يُؤدبه ويُرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولًا للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل ﷺ فقد خَلَّفَ الخلفاء في مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى، وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبًا لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يكون عالِمًا، ولكن لا كل عالِم يصلح للخلافة، وإني أُبيِّنُ لك بعض علامته على سبيل الإجمال حتى لا يدَّعي كل أحد أنه مرشد، فنقول:

مَن يُعْرِضَ عن حبِّ الدنيا وحبِّ الجاه، وكان قد تابع لشخص بصير يتسلسل[1] متابعته إلى سيد المرسلين ﷺ، وكان مُحْسِّنًا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلًا محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر، والصلاة، والشكر، والتوكل، واليقين، والقناعة، وطمأنينة النفس، والحلم، والتواضع، والعلم، والصدق، والحياء، والوفاء،

(١) السلسلة تعني: السند المتصل لشيخه، وشيخه عن شيخه، وهكذا إلى أن يصل السند إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ. والإسناد ركنٌ رئيسٌ من أركان منهج أهل السُّنة والجماعة.

والوقار، والسكون، والتأني، وأمثالها، فهو إذا نور من أنوار النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلح للاقتداء به ، ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخًا - كما ذكرنا - وقَبِلَه الشيخُ، ينبغي أن يحترمه ظاهرًا وباطنًا. أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله، ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة، وإن عَلِمَ خطأه، ولا يلقي بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة، فإذا فَرِغَ يرفعها، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته. وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن، لا فعلًا ولا قولًا لِئَلا يتسم بالنفاق، وإن لم يستطع، يتركْ صحبته إلى أن يوافق باطنُه ظاهرَه، ويحترز عن مجالسة صاحب السوء؛ ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه، فيصفى عن لوث الشيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى.

ثم اعلم أن التصوَّفَ له خصلتان: الاستقامة والسكون عن الخلق، فمن استقام، وأَحْسَنَ خُلُقَه بالناس، وعاملهم بالحلم فهو صوفي. والاستقامة أن يفدي حظ نفسه لنفسه، وحُسْنُ الخُلُقِ مع الناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك؛ بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع، ثم إنك سألتني عن العبودية، وهي ثلاثة أشياء (أحدها): محافظة أمر الشرع، و(ثانيها): الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى، و(ثالثها): ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى. وسألتني عن التوكل هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد؛ يعني تعتقد أن ما قُدِّرَ لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهدَ كلُ مَن في العالم على صرفه عنك، وما لم يُكتب، لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم. وسألتني عن الإخلاص، وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

واعلم أن الرياءَ يتولَّدُ من تعظيم الخلق، وعلاجه أن تراهم مُسَخَّرِينَ تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذو قدرة وإرادة لن يَبْعُدَ عنك الرياء.

أيها الولد، والباقي من مسائلك بعضها مسطور في مصنفاتي، فاطلبه منه، وكتابة بعضها حرام. اعملْ أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم.

أيها الولد، بعد اليوم لا تسألني ما أُشْكِلَ عليك إلا بلسان الجنان قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(١). واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾(٢)، ولا تستعجل حتى تبلغ أو أنه يُكشف لك وتراه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾(٣)، فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾(٤).

أيها الولد، بالله إن تَسِر ترى العجائب في كل منزل، وابذل روحك، فإن رأس هذا الأمر بَذْلُ الروح، كما قال ذو النون المصري - رحمه الله تعالى - لأحد من تلامذته: «إن قدرت على بذل الروح فتعال، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية».

---

(١) سورة الحجرات: ٥

(٢) سورة الكهف: ٧٠

(٣) سورة الأنبياء: ٣٧

(٤) سورة الروم: ٩

أيها الولد، إني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني، لئلا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة. **أما اللواتي تدع:**

(أحدها):

أن لا تناظر أحدًا في مسألةٍ ما استطعت، لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خُلُقٍ ذميم، كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها. نعم، لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن تُظْهِرَ الحقَّ، ولا يضيع، جاز البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان: (إحداهما): أن لا تُفَرّقَ بين أن ينكشف الحق على لسانك، أو على لسان غيرك، و(الثانية): أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملأ، واسمع إني أذكر لك ها هنا فائدة. واعلم أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعي لإصلاح مرضه. واعلم أن الجاهلين المرضى قلوبهم، والعلماء الأطباء، والعالِم الناقص، لا يحسن المعالجة، والعالِم الكامل لا يعالج كل مريض، بل يعالج مَن يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح. وإذا كانت العِلّة مزمنة أو عقيمًا لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول: (هذا لا يقبل العلاج، فلا تشتغل فيه بمداواته، لأن فيه تضييع العمر).

ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع:

(أحدها): يقبل العلاج، والباقي لا يقبل. أما الذي لا يقبل: أحدها مَن كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه، فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه

وأوضحه، فلا يزيد له ذلك إلا بغضًا وعداوةً وحسدًا، فالطريق أن لا تشتغل بجوابه فقد قيل:

كل العداوة قد تُرْجَى إِزَالَتُها إلا عداوة من عاداك عن حسدٍ

فينبغي أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه، قال الله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩﴾(١). والحسود بكل ما يقول ويفعل، يُوقِدُ النارَ في زرع علمه، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ.

(والثاني): أن تكون علته من الحماقة، وهو أيضًا لا يقبل العلاج، كما قال عيسى عليه السلام: «إني ما عجزتُ عن إحياء الموتى، وقد عجزتُ عن معالجة الأحمق»، وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنًا قليلًا، ويتعلم شيئًا من العلوم العقلي والشرعي، فيسأل، ويعترض من حماقته على العالِم الكبير الذي مضى عمره في العلوم العقلية والشرعية، وهذا الأحمق لم يعلم ويظن أن ما أُشْكِلَ عليه هو أيضًا مُشْكِلٌ للعالِم الكبير. فإذا لم يعلم هذا القدر، يكون سؤاله من الحماقة، فينبغي أن لا يشتغل بجوابه.

(والثالث): أن يكون مسترشدًا، وكل ما لا يُفهم من كلام الأكابر، يُحمل على قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة، لكن يكون بليدًا، لا يدرك الحقائق، فلا

---

(١) سورة النجم: ٢٩

ينبغي الاشتغال بجوابه أيضًا، كما قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(١).

وأما المرض الذي يقبل العلاج، فهو أن يكون مسترشدًا عاقلًا فَهْمًا، لا يكون مغلوب الحسد، والغضب، وحب الشهوة، والجاه، والمال، ويكون طالب الطريق المستقيم، ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنُّت وامتحان، وهذا يقبل العلاج، فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله؛ بل يجب عليك إجابته.

(والثاني):

مما تدع وهو أن تحذر من أن تكون واعظًا ومُذَكِّرًا، لأن فيه آفة كثيرة، إلا أن تعمل بما تقول أولًا، ثم تعظ به الناس، فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: «يا بن مريم؛ عِظْ نفسك، فإن اتَّعَظْتَ فَعِظْ الناسَ، وإلا فاستحي من ربك، وإن ابتليتَ بهذا العمل فاحترز عن خصلتين:

الأولى: عن التكلُّف في الكلام بالعبارات، والإشارات، والطامات، والأبيات، والأشعار؛ لأن الله تعالى يبغض المتكلفين، والمتكلف المُتجاوِز عن الحدِّ

---

(١) قال الحافظُ العراقيُّ في (المُغني عن حمل الأسفار في الأسفار): («نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»، رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه، وعند أبي داود من حديث عائشة: «أنزلوا الناس منازلهم»).

أبو حامد الغزَّالي، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار"**، كتاب العلم، الباب الخامس: في آداب المُتعلِّم والمُعَلِّم، ج ١، ص ٧٦، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

يدل على خراب الباطن وغفلة القلب. ومعنى التذكير أن يذكرَ العبدُ نارَ الآخرةِ، وتقصير نفسه في خدمة الخالق، ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان في الخاتمة، وكيفية حاله في قبض ملك الموت، وهل يقدر على جواب منكر ونكير، ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يعبر عن الصراط سالمًا أم يقع في الهاوية. ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه فيزعجه عن قراره، فغليان هذه النيران ونوحة هذه المصائب يسمى تذكيرًا، وإعلامهم الخلق واطلاعهم على هذه الأشياء وتنبيههم على تقصيرهم، وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم؛ لتمس حرارةُ هذه النيران أهلَ المجلسِ وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسروا على الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالى. هذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظًا كما لو رأيتَ أن السيل قد هجم على دار أحد، وكان هو وأهله فيها فتقول: الحذر الحذر، فروا من السيل! وهل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكليف العبارات، والنُّكَتِ[١]، والإشارات، فلا تشتهي البتة؛ فكذلك حال الواعظ، فينبغي أن يجتنبها.

والخصلة الثانية: أن لا تكون همتك في وعظك أن يَنْفُرَ الخَلْقُ في مجلسِك، ويظهروا الوَجْدَ[٢]، ويشقوا الثياب، ليقال: نِعْمَ المجلس هذا؛ لأن كله ميل للدنيا،

---

(١) النُّكَتُ: مفردها (النُّكْتَة)، ومعناها المسألة العلمية الدقيقة التي يُتوصَّلُ إليها بدقة وإتمام فِكر.

(٢) الوَجْدُ: (لقد تكلم ابن عربي على الوجود بلغة التجربة الصوفية والمقامات. يقول عن طبقةٍ إنهم: «أهل الوجود» أو «أهل الكشف والوجود»، ويريد بذلك الذين يجدون الحقَّ في **وَجْدِهِم**، فالسماع يُوصِّل الواحد منهم إلى **الوَجْدِ** الذي لا يكون صحيحًا حقيقيًّا إلا بوجود الحق فيه وجودًا ذا كيفية مجهولة).

الحكيم، سعاد، **المعجم الصوفي**، ط ١، ص ١١٣٠، دندرة للطباعة والنشر.

وهو يتولد من الغفلة، بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التقوى، وتُحبِّبْ إليهم الآخرة وتُبغِّضْ إليهم الدنيا، وتُعَلِّمهم علم العبادة والزهد؛ لأن الغالب في طباعهم الزيغ عن منهج الشرع، والسعي فيما لا يرضى الله تعالى به، والاستعثار بالأخلاق الردية، فألْق في قلوبهم الرعب، وروعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف، ولعل صفات باطنهم تتغير، ومعاملة ظاهرهم تتبدل، وينظروا الحرص والرغبة في الطاعة، والرجوع عن المعصية. وهذا طريق الوعظ والنصيحة، وكل وعظ لا يكون هكذا، فهو وَبَالٌ على من قال ويسمع، بل قيل: إنه غول وشيطان يذهبُ بالخَلْقِ عن الطريق ويهلكهم. فيجب عليهم أن يفروا منه؛ لأن ما يفيد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشيطان، ومن كانت له يد وقدرة، يجب عليه أن يُنزله عن منابر المواعظ، ويمنعه عما باشر، فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(والثالث):

مما تدع أنه لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا تراهم؛ لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتُلِيتَ بها، دع عنك مدحهم وثناءهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مُدِحَ الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحب أن يُعْصَى الله في أرضه.

(والرابع):

مما تدع أن لا تقبل شيئًا من عطاء الأمراء، وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال؛ لأن الطمع منهم يفسد الدين؛ لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم، وهذا كله فساد في الدين، وأقل مضرته أنك إذا قَبِلْتَ عطاياهم، وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ومن أحب أحدًا، يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم، فأي شيء يكون أضر من هذا الدين والعاقبة، وإياك وإياك أن يخدعك استهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين، فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثيرة من الناس بهذه الوسوسة. وقد ذكرناه في إحياء العلوم فاطلبه ثمة.

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

(الأول):

أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامَلَ معك بها عبدُكَ، ترضى بها منه، ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، والذي لا ترضى لنفسك من عبدِكَ المجازي، فلا ترضى أيضًا لله تعالى وهو سيدك الحقيقي.

(والثاني):

كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم؛ لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه.

(والثالث):

إذا قرأت العلم أو طالعته، ينبغي أن يكون علمك يُصلح قلبك، ويُزكي نفسك، كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها[١]؛ لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتُزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة، وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة. ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

(١) إن مقصود الإمام الغزَّالي ليس المتبادر إلى الذهن بأن يترك الإنسان علم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهم؛ لأنها جميعًا من أشرف العلوم، فعلم الفقه به يعرف المسلم كيف يعبد الله، وعلم أصول الفقه كذلك، وعلم الكلام يعرف المسلم به ربه بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، وإنما مقصود الإمام عدم الاستزادة في طلب هذه العلوم وإهمال الجانب القلبي؛ لأن تعلُّم الفقه وغيره، والاقتصار عليهم فقط دون النظر في علم الزهد والحكمة والتصوف، يُقْسِي القلب، والقلب القاسي بطبيعته بعيد عن الله تعالى. وخلاصة مقصود حُجَّة الإسلام أن يأخذ المسلم ما يكفيه فقط من علوم الفقه والكلام والأصول، القدر الذي يعينه على معرفة الله = =وعبادته على الوجه الأكمل، حتى يستطيع أن يسلك الطريق الصوفي عن علم لا عن جهل؛ لأن الجهل بالعلوم الأساسية كالفقه وغيره سببٌ رئيسٌ في الانحراف عن طريق الصوفية، ولا يستزيد منها لأنها ليستْ من زاد القبر.

أيها الولد، اسمع مني كلامًا آخر، وتفكرَ فيه حتى تجد خلاصًا. لو أنك أُخْبِرْتَ أن السلطانَ بعد أسبوع يختارك وزيرًا، اعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظرَ السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها. والآن تفكَّرْ إلى ما أشرت به، فإنك فَهِمٌ، والكلام الفرد(١) يكفي، أليس قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ»(٢). وإن أردتَ علم أحوال القلب فانظر إلى الإحياء(٣) وغيره من مصنفاتي. وهذا العلم(٤) فرض عين، وغيره فرض كفاية إلا مقدار ما يؤدي به فرائض الله تعالى وهو يوفقك حتى تحصله.

(والرابع):

أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله ﷺ يُعِدُّ ذلك لبعض حجراته(٥)، وقال: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا»(٦)، ولم يكن يُعِدُّ ذلك لكل حجراته، بل كان يُعِدُّه لمن علم أن في قلبها ضعفًا، وأما مَن كانت

(١) الكلام القليل.

(٢) لم يرد هذا الحديث بهذه الصيغة، لكن الصحيح ما ورد في صحيح مسلم: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ). صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله – حديث رقم ٦٧٠٧، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزَّالي.

(٤) أي علم القلوب.

(٥) أي زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن جميعًا.

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّد كَفَافًا).

صاحبة يقين، ما كان يَعُدُّ لها أكثر من قوت يوم ونصف. أيها الولد، إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك، فينبغي لك أن تعمل بها، ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك. وأما الدعاء الذي سألت مني، فاطلبه من دعوات الصحاح(١)، واقرأ هذا الدعاء في أوقاتك خصوصًا أعقاب صلواتك: «اللهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمَّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه. اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقّق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومِنَّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا. اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأَعِذْنَا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار برحمتك يا عزيز يا غفار يا كريم يا ستار يا عليم يا جبّار يا الله يا الله يا الله برحمتك يا أرحم الراحمين، ويا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

❁❁❁

[انتهت رسالة أيها الولد]

---

(١) أي الأدعية التي وردت إلينا في الأحاديث النبوية الصحيحة.

■■ الرحلة ٢ ■■



كيمياء السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

(خطبة الرسالة)

الحمد لله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحَلَّى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجَلَّى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد[1] العباد عن الفساد، وحبس مراد الزُّهَّاد على السداد، وخَلَّصَ أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصَفَّى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقَبِلَ أعمال الأخيار بأداء الصلوات، وأَيَّدَ خصال الأحرار بأَسَدِّ[2] الصلات.

أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته، وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته، وطرق طوارق سِرِّه وبِرِّه، وقطف ثمار معرفته من شجر مجده وجوده، وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله، وأومن به إيمان من آمن

(١) سواد العباد: جميعهم وعامتهم.

(٢) أَسَدُّ: من السداد والرشاد.

بكتابه وخطابه، وأنبيائه وأصفيائه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصمًا، ولعرى الجاحدين والمارقين فَاصِمًا(١)، ولباع الشك والشرك قاهرًا، ولأتباع الحق والإحسان ناصرًا؛ فصلوات الله عليه، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.



(١) فَاصِم: من الفعل فَصَمَ؛ أي انحلتْ عُقَدُ الجاحدين والمارقين وانتهى تواصلها وتصدَّعتْ ببعثة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

(نص الرسالة)

﴿عنوان معرفة النفس﴾

❁❁❁

اعلم أن الكيمياء(١) الظاهرية لا تكون في خزائن العوام وإنما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى؛ ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة، فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج، فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال ﷻ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾(٢). ومن رحمة الله ﷻ لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلمون الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كَوْرِ(٣) المجاهدة، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

---

(١) الكيمياء: صنعة تحويل بعض المعادن إلى أحد النقدين، وهنا أطلقها المؤلف – قُدِّسَ سِرّه – على تحويل الإنسان من الخُلُقِ الرديء إلى الطيب، ولعَمْرِي إن ذلك لهو إلا حق بالاسم، كما لا يخفى على ذي البصيرة.

(٢) سورة ق: ٢٢

(٣) كَوْر المجاهدة: في فَلَك المجاهدة ليلًا ونهارًا؛ أي أن مجاهدة الإنسان لنفسه لا تنتهي.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١]، أي يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء أن كل ما كان من صفات النقص يتعرى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه، وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾[٢] وفضل هذه الكيمياء طويل.



(١) سورة الجمعة: ٢

(٢) سورة المزمل: ٣

﴿فصل في معرفة النفس﴾

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١).

وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(٢). وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك، فكيف تعرف ربك؟ فإن قلت: إني أعرف نفسي، فإنما تعرف الجسم الظاهر، الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب، والدواب تشاركك في هذه الأمور.

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة؛ حتى تدرك أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خُلِقْتَ، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك. وقد جُمِعَتْ في باطنك صفات: منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع،

---

(١) سورة فصلت: ٥٣

(٢) هذا القول يُحكَى عن يحيى بن معاذ الرازي؛ يعني من قوله كذا، قاله أبو المظفر بن السمعاني، وكذا قاله النووي إنه لا يُعرَف مرفوعًا، وقيل في تأويله: من عرف نفسه بالحدوث، عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء.

ومنها صفات الملائكة؛ فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك، وعارية عندك. فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

فإن سعادة البهائم في الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج. وسعادة السباع في الضرب، والفتك. وسعادة الشياطين في المكر، والشر، والحيل. فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم. وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق. فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك؛ حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك؛ فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتُسَخِّرُها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك؛ حتى تصيد بها سعادتك. فإذا بلغت غرضك فارمِ بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك. وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة. فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني؛ حتى تعرف من نفسك شيئًا قليلًا؛ فكل مَن لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور؛ لأن الحق يكون عنه محجوبًا.

﴿فصل﴾

إذا شئت أن تعرف نفسك، فاعلم أنك من شيئين:

(الأول):هذا القلب، (والثاني): يسمى النفس والروح.

والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن، وحقيقتك الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر، والنفس آخر وهو الأول، ويسمى قلباً، وليس القلب هذه القطعة اللحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر؛ لأنه يكون في الدواب والموتى. وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة.

وأما حقيقة القلب، فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب؛ فهو في هذا العالم غريب. وتلك القطعة اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه، والخطاب معه، وله الثواب، وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه، والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه. ومعرفة حقيقته، ومعرفة صفاته، مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه؛ لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، من ذلك المكان جاء، وإلى ذلك المكان يعود.

﴿فصل﴾

أما سؤالك: ما حقيقة القلب، فلم يجئ في الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾(١)، لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية، وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(٢).

(١) سورة الإسراء: ٨٥

(٢) سورة الأعراف: ٥٤

فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب؛ فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق. وليس للقلب مساحة ولا مقدار؛ ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلاً، ومن جانب العلم عالمًا، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال. وفي معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه.

وقد ظن بعضهم: (أن الروح قديم) فغلطوا. وقال قوم: (إنه عَرَضٌ)، فغلطوا؛ لأن العرض لا يقوم بنفسه، ويكون تابعًا لغيره. فالروح هو أصل ابن آدم، وقَالَب ابن آدم تبع له؛ فكيف يكون عرضًا[1]. وقال قوم: (إنه جسم)، فغلطوا؛ لأن الجسم يقبل القسمة، والروح لا يقبل القسمة. وأن الروح الذي سميناه قلبًا، وهو محل معرفة الله تعالى، ليس بجسم، ولا عرض؛ بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جدًّا؛ لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته؛ لأنه لا حاجة في الدين إلى معرفته؛ لأن الدين هو المجاهدة، والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2]. ومن لم يجتهد حق اجتهاده، لم يجز أن يُتَحَدَّثَ معه في معرفة حقيقة الروح. وأول أس المجاهدة أن تعرف عسكر القلب؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر، لم يصح له الجهاد.

---

(١) ولذا قال بعض الحكماء: ينبغي أن نقول إن النفسَ حاملُ البدن، لا أن البدنَ حاملُ النفس على ما هو مشهور.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩

﴿فصل﴾

اعلم أن النفسَ مَرْكَبُ القلبِ، وللقلب عساكر، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾(١). والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبا لسعادته، وسعادته معرفة ربه ﷻ، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله، وهو من جملة عالمه، ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب، والقالَب مركبه. ثم معرفة صيده، ومعرفة شبكته، والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، وهو مقابل أعداء كثيرة.

﴿فصل﴾

وتحتاج أن تعرف العَسْكَرَين: وذلك أن (**العسكر الظاهر**) هو: الشهوة والغضب؛ ومنازلهم في اليدين والرجلين والعينين والأذنين، وجميع الأعضاء. وأما (**العسكر الباطن**) فمنازله في الدماغ، وهو قوي الخيال والتفكر والحفظ والتذكر والوهم. ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضَعُفَ واحدٌ منهم، ضَعُفَ حال ابن آدم في الدارين.

وجملة هذين العَسْكَرَين في القلب، وهو أميرهما؛ فإن أَمَرَ اللسانَ أن يَذْكُرَ، ذَكَرَ، وإن أَمَرَ اليدَّ أن تبْطِشَ، بَطَشَتْ، وإن أَمَرَ الرِّجْلَ أن تَسْعَى، سَعَتْ، وكذلك

(١) سورة المدثر: ٣١

الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه، كيما يدخر الزاد للدار الآخرة، ويحصل الصيد، وتتم التجارة، ويجمع بذر السعادة.

وهؤلاء طائعون للقلب، كما أن الملائكة طائعون للرب ﷻ لا يخالفون أمره.



﴿فصل في معرفة القلب وعسكره﴾

۞۞۞

اعلم أنه قيل في المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها. والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله؛ لأن الوالي وهو الشهوة كذاب فضولي مخلط، والشحنة - وهو الغضب - شرير قَتَّال خَرَّاب. فإن تركهم الملك على ما هم عليه، هلكت المدينة وخربت؛ فيجب أن يشاورَ الملكُ الوزيرَ، ويجعل الوالي والشحنة تحت يد الوزير. فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل، ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه، حتى تستقر أحوال النفس، ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية. ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة، هلكت نفسه، وكان قلبه شقياً في الآخرة.

﴿فصل﴾

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس، والحواس شبكة العقل وجواسيسه، يبصر بها صنائع البارئ جَلَّتْ قدرته.

ثم الحواس خادم العقل، وهو للقلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرةَ الإلهيةَ؛ لأن الجنة التي هي نصيب الجوف أو الفرج محتقرة في جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية.

فمن اجتهد في هذه الصنعة، فهو عبد حق، من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦﴾[1]. معناه: إنا خلقنا القلب، وأعطيناه الملك والعسكر، وجعلنا النفسَ مَرْكَبَةَ حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين. فإذا أراد أن يؤدي حق هذه النعمة، جلس مثل السلطان في صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قِبْلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزله، واليدين والقدمين خدامه، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه. وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم. وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ في وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع الرقاع من يد النقيب ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل. فإذا بلغت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها. فإذا رأيت واحدًا منهم قد عصى عليك، مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة، ولا تقصد قتلهما؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما.

فإذا فعلت ذلك كنت سعيدًا، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخلعة في وقتها، وإلا كنت شقيًّا، ووجب عليك النكال والعقوبة.

(١) سورة الذاريات: ٥٦

﴿فصل﴾

تمام السعادة مبنيٌّ على ثلاثة أشياء: قوة الغضب، قوة الشهوة، قوة العلم.

فيحتاج أن يكون أمرها متوسطًا؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك. فإذا توسطتْ القوتان بإشارة قوة العدل، دُلَّ على طريق الهداية، وكذلك إن الغضب إذا زاد، سَهُلَ عليه الضرب والقتل، وإذا نقص، ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط، كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت، كان الفسق والفجور، وإن نقصت، كان العجز والفتور، وإن توسطت، كان العفة والقناعة وأمثال ذلك.

﴿فصل﴾

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالًا وصفات، بعضها يُسمى أخلاق السوء، وبعضها أخلاق الحسن. فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، وبالأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء. وهذه كلها تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة.

فأعمال السوء: من الأكل والشرب، والنوم، والنكاح؛ هي أخلاق البهائم. وكذلك أعمال الغضب: من الضرب، والقتل، والخصومة هي أخلاق السباع. وكذلك أعمال النفس: وهي المكر، والحيلة، والغش، وغير ذلك؛ هي أخلاق الشياطين. وكذلك أعمال العقل؛ التي هي الرحمة، والعلم، والخير؛ هي أخلاق الملائكة.

﴿فصل﴾

واعلم أن في جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والملك.

والكلب مذموم في صفاته، وليس بمذموم في صورته. وكذلك الشيطان والملائكة، ذمهم ومدحهم في صفاتهم، وليس ذلك في صورهم وخلقهم. وكذلك الخنزير مذموم في صفاته، وليس بمذموم في خلقته.

وقد أُمِرَ ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل؛ خوفًا من الفتنة، كما قال النبي ﷺ: «ما من أحد إلا وله شيطان ولي شيطان وأن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته»(١). وكذلك الشهوة والغضب، ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعل شيئًا إلا بأمره، فإن فعل ذلك، صَحَّ له حُسْن الأخلاق، وهي صفات الملائكة، وهي بذر السعادة. وإن عمل بخلاف ذلك، نخدم الشهوة والغضب، صَحَّ له الأخلاق القبيحة، وهي صفات الشياطين، وهي بذر الشقاء. فيتبين له في نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالًا مسلمين يحبسهم عند كافرين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك - وهو العقل - تحت يد الشهوة والغضب، وهما الكلب والخنزير؟

---

(١) لم ترد كلمة (حتى ملكته) في أي رواية، بل إن لفظ الحديث: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ). صحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينًا - حديث رقم ٧٢٨٦، والحديث من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

﴿فصل﴾

واعلم أن الإنسان في صورة ابن آدم اليوم، وغدًا تنكشف له المعاني، فتكون الصور في معنى المعاني.

فأما الذي غلب عليه الغضب، فيقوم في صورة الكلب. وأما الذي غلب عليه الشهوة، فيقوم في صورة الخنزير، لأن الصور تابعة للمعاني. وإنما يبصر النائم في نومه ما صح في باطنه. وإذا عرفت أن الإنسان في باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أي الأربعة هو، فإن صفاته تحصل في قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة. وإن بقي من جملة الباقيات الصالحات شيء فهو بذر السعادة، وإن بقي معه غير ذلك فهو بذر الشقاء.

وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج، وأخلاق السوء كالدخان والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك، أُظْلِمَ عليه طريق السعادة. وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب، طَهَّرَه من ظلم المعاصي، كما قال رسول الله ﷺ: «وَأَتْبِع السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»(١). والقلب إما مضيء أو مظلم، ولا ينجو إلا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(٢).

---

(١) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في معاشرة الناس – حديث رقم ٢١١٥، والحديث من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) سورة الشعراء: ٨٩

﴿فصل﴾

واعلم أن الشهوة والغضب اللتان في البهائم جُعِلَتا أيضًا في ابن آدم، ولكنه أُعْطِيَ شيئًا آخر زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله تعالى، وجملة عجائب صُنْعِه، وبه يُخَلِّصَ نفسه من يد الشهوة والغضب، وتحصل له صفات الملائكة. ولذلك؛ يظفر بالسباع والبهائم، وتصير كلها مُسَخَّرَة له كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].



(١) سورة الجاثية: ١٣

﴿فصل في عجائب القلب﴾

❁❁❁

اعلم أن للقلب بابين للعلوم: واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج. فإن نامَ، غُلِقَ باب الحواس، فيُفْتَحُ له باب الباطن ويكشف له غيب من عالم الملكوت، ومن اللوح المحفوظ؛ فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام. وأما ما كان من الظاهر، فيظن الناس أن به اليقظة، وأن اليقظة أولى بالمعرفة، مع أنه لا يبصر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.

﴿فصل﴾

وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا؛ لأن فيه صورة كل موجود، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى، حَلَّتْ صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب، إذا كان فارغًا من شهوات الدنيا. فإن كان مشغولًا بها، كان عالم الملكوت محجوبًا عنه، وإن كان في حال النوم فارغًا من علائق الحواس، طَالَعَ جواهر عالم الملكوت؛ فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ.

وإذا غُلِقَ باب الحواس، كان بعده الخيال؛ لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفًا، فإذا مات - أي القلب - بموت صاحبه

لم يبق خيال ولا حواس. وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[١].

﴿فصل﴾

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم، وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الحواس، بل يدخل في القلب، لا يُعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم (عالم الملك). فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم، إذا لم يكن فارغًا من شغل الحواس.

﴿فصل﴾

ولا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة.

فإذا جلس في مكانٍ خالٍ، وعَطَّلَ طريق الحواس، وفَتَّحَ عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائمًا: «الله الله الله» بقلبه، دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت تلك الطاقة، وأبصرَ في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر

---

(١) سورة ق: ٢٢

له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ: «رُؤيَتْ لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغربها»(١)، وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٢)؛ لأن علوم الأنبياء - عليهم السلام - كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾(٣)، معناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه ﷻ بالكلية، وهو طريق الصوفية في هذا الزمان. وأما طريق التعليم، فهو طريق العلماء. وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء؛ لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق، كما قال ﷻ: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾(٤).

وهذه الطريقة لا تُفْهَم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق، لم تحصل بالتعليم. والواجب التصديق بها حتى لا تُحْرَم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصرْ، لم يُصَدِّقْ، كما قال ﷻ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا

(١) لم ترد كلمة (رُؤيَتْ)، بل لفظ الحديث: (زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا). سنن ابن ماجة - كتاب الفتن - باب ما يكون من الفتن - حديث رقم ٤٠٨٧، والحديث من طريق ثوبان الهاشمي مولى رسول الله ﷺ.

(٢) سورة الأنعام: ٧٥

(٣) سورة المزمل: ٨

(٤) سورة الكهف: ٦٥

يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[(٢)].

﴿فصل﴾

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء أو جدب، فيحتاج إلى صقل أو سبك لأنه قد تلف.

وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي، لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود إلا يولد على فطرة الإسلام»[(٣)]، وقال الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[(٤)]. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[(٥)]، والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

(١) سورة يونس: ٣٩

(٢) سورة الأحقاف: ١١

(٣) لم ترد كلمة (فطرة الإسلام)، بل وردت (الفطرة)، ولفظ الحديث: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ). صحيح البخاري – كتاب الجنائز – باب ما قيل في أولاد المشركين – حديث رقم ١٤٠١، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٢

(٥) سورة الروم: ٣٠

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾[1]. فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد، والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة: طلب شيخ بالغ عارف قد مشى في هذا الطريق، وإذا حصل هذان الشيئان لأحد، فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلي حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.



(١) سورة الكهف: ١١٠

﴿فصل إن اللذة والسعادة لابن آدم معرفة الله ﷻ﴾

❁❁❁

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طَبْعه، وطَبْعُ كل شيء ما خُلِقَ له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله ﷻ لأنه مخلوق لها. وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل لعبة الشطرنج، إذا عرفها فرح بها، ولو نُهِيَ عنها، لم يتركها، ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله ﷻ، وفرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذةَ القلبِ المعرفةُ.

وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير، فَرِحَ، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا.

وليس موجود أشرف من الله ﷻ؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته؛ فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت. ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضوؤه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

﴿فصل﴾

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل السماء، وحواسه مثل الكواكب. وتفصيل ذلك طويل.

وأيضًا فإن في باطنه صناع العالم؛ لأن القوة في المعدة كالطباخ، والتي في الكبد كالخباز، والتي في الأمعاء كالقصار، والتي تبيض اللبن وتحمر الدم كالصباغ. وشرح ذلك طويل.

والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت، ولا تشكر من أنعم عليك بهم.



﴿فصل في معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التي يقال عنها في علم التشريح﴾

❁❁❁

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب. فكل من أراد أن ينظر في نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية:

(الأولى):

أن يعرف أن خالق هذا الشخص قادر على الكمال، وليس بعاجز، وهو الله ﷻ. وليس عمل في العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾(١)، فإعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

(١) سورة الإنسان: ٢

(الثانية):

معرفة علمه ﷻ، وأنه محيط بالأشياء كلها؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم.

(الثالثة):

أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها؛ لما ترى في النبات والحيوان والمعادن من سعة القدرة وحسن الصور والألوان.



﴿فصل في تفضيل خلقة بين آدم؛ لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية، وهو علم شريف﴾

❁❁❁

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله ﷻ وقدرته.

وهو مختصر معرفة القلب، وهو علم شريف؛ إذ هو معرفة الصنائع الإلهية؛ لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعهما الفارس. ومن لم يعرف نفسه، وهو يدعي معرفة غيره، فهو كالرجل المفلس الذي ليس له طعام لنفسه وهو يدعي أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

﴿فصل﴾

إذا عرفت هذا العز، والشرف، والكمال، والجمال، والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب وأنه جوهر عزيز، قد وُهِبَ لك، وبعد ذلك خُفِيَ عنك. فإن لم تطلبه، وغفلت عنه، وضيعته، كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد في طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها، وكل شرف لم يظهر في الدنيا، فهو في الآخرة فرح بلا غم، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان.

وأما اليوم؛ فليس شيء أعجز منه؛ لأنه مسكين ناقص. وإنما الشرف غدًا، إذا طَرَحَ من هذه الكيمياء على جوهر قلبه، حتى يَخْلُصَ منه شَبَه البهائم، ويبلغ

درجة الملائكة. فإن رجع إلى شهوات الدنيا، فُضِّلَتْ عليه البهائم يوم القيامة؛ لأنهم يصيرون إلى التراب، ويبقى هو في العذاب.

نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



[انتهت رسالة كيمياء السعادة]

فهرس المحتويات